

الهوية الوطنية الجزائرية : المرجعيات، الأبعاد، التحديات

الأستاذ: محمد الأمين عطلي

المركز الجامعي بآفلو- الاغواط

ملخص:

يعرف موضوع الهوية أهمية بالغة في دراسة المجتمعات وبناءاتها السلوكية، نظرا لارتباطه بالقيم الحضارية المكونة لشخصية أي مجموعة بشرية، حيث عرف في العقود الأخيرة اهتماما كبيرا من طرف علماء الاجتماع والفلسفة والنفس، في محاولة لدراسة الموضوع بعيدا عن شمولية التفكير، ووحودية النموذج الثقافي العالمي. والمجتمع الجزائري يعتبر عينة ملائمة لدراسة الموضوع، بسبب عمقه التاريخي والحضاري، وتنوع بنيته الفكرية والعرقية والثقافية. بالرغم من تعدد الافكار الايديولوجية، وشيوع افكار الحداثة والعولمة و الولاء السياسي والحزبي.

الملخص باللغة الانجليزية:

The subject of the identity have a great importance for the study of societies and its behavioural structures, because it's completely connected with the civilizational values which forms the personality of any human community, wherever, during the last decencies this subject was the focus center of the sociologists, philosophes and psychologists for the aim of trying to treat this subject far from the entirety of thinking and the unity of the international cultural model, the Algerian society is considered as a very appropriate sample to study the subject, by the effect of his civilizational and historic depth, and also according to his ethnic and cultural diversity, however the difference of the ideological thoughts, and the arrival of the modernity and the globalization ideas and the political and party loyalty.

تعتبر الحضارة عن انعكاس السلوك الايجابي، للأفراد داخل المجتمعات، والكيانات السياسية بمختلف توجهاتها وإيديولوجياتها، على اعتبار أن حيوية الفرد ومدى تجاوبه

مع قيم مجموعته، لها التأثير البالغ في تحديد ملامح الرقي الحضاري لمجتمعه. و لقياس ايجابية هذه السلوكيات لابد من الوقوف على مرجعياته الفكرية؛ المتكونة من تاريخ وثقافة الأمة أولاً، و مناهجها التعليمية و فاعلية مؤسساتها ثانياً، ومدى التفاعل مع الأنماط السلوكية و البنى الفكرية الأخرى ثالثاً.

وتشكل الهوية عنواناً للذات، واعترافاً بالوجود، و سمة تميز المجتمع قبل الفرد، عن غيره من المجموعات البشرية. ولهذا اكتسب موضوع الهوية أهمية بالغة، وارتبطت دراسته بجميع فروع العلوم الاجتماعية؛ خاصة علم الاجتماع والفلسفة والانثروبولوجيا، لارتباطهم المباشر بدراسة سلوك الإنسان وبنائه الاجتماعي. وغدا مصطلح الهوية في العقود الأخيرة، أحد أهم المواضيع الاجتماعية دراسة.

ونظراً للبعد التاريخي والثقافي العميق للمجتمع الجزائري، وتنوع بنيته الاجتماعية، وراثته الثقافي واللغوي، توجب علينا دراسة الموضوع، دراسة علمية معمقة، بعيداً عن الشوفينية العرقية، والذاتية المتسترة خلف الانتماءات الايديولوجية؛ لتعزيز القيم الوطنية، وبعث روح الشعور بالإنتماء للجماعة، والاحساس بواقعية المصير المشترك.

ومن هنا تتبلور إشكالية بحثي في التساؤل التالي: "ما هو مفهوم الهوية؟ وما هو واقع الهوية الجزائرية في ظل التحديات الفكرية المحلية والعالمية الراهنة"؟

وللإجابة على هذه الإشكالية سأقسم دراستي لعناصر وفق المنهج الوصفي والتحليلي:

1- أهمية موضوع الهوية في الدراسات الاجتماعية والإنسانية:

قبل تعريف الهوية، لا بد من الإشارة إلى أهمية الموضوع الذي عرف في العقود الأخيرة اهتماماً غير مسبوق، و غدا مادة دسمة أثارت فضول و اهتمام كل مجالات البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية⁽¹⁾، و أصبح مصطلح الهوية في القرن 20، ذا مكانة متميزة، حتى صارت له تطبيقات، في مجال الدراسات الأكاديمية، والإيديولوجية القابلة للدراسة من عدة زوايا⁽²⁾.

فتمت دراسته من خلال تحليل مفهوم الذات، كما هو الحال بالنسبة لعلماء النفس، و من حيث تحليل نمط الأدوار الشخصية، بالنسبة لعلماء الاجتماع، و أثار حتى أطباء النفس من خلال كونه مجالا خصباً لدراسة النفس؛ من حيث الأمراض الفصامية، و

¹ - أعتبر موضوع الهوية قبل أكثر قرون بعيدة من التراث الميتافيزيقي، لكن سرعان ما أصبح من العلوم الإنسانية.

² - سالم لبيض: الهوية، الإسلام، العروبة، التونسية، يركز دراسات الوحدة العربية، 2009، بيروت، ص 32.

الشعور واللاشعور بالذات، و باعتبار تركيز علم الانثروبولوجيا على السلوك و البناء الاجتماعي للأفراد، فقد وصف الانثروبولوجيون الهويات العرقية، وقاموا بتحليلها، و خاض حتى اللاهوتيون، في أساس الشخصية الأصلية لحرية الذات⁽¹⁾ وعليه غدا موضوع الهوية، من أهم الإشكاليات التي واجهها الفكر المعاصر، كونه يتحدد بناءا على دلالات لغوية، و فلسفية و سوسولوجية، و حتى تاريخية⁽²⁾. فتوجب علينا قبل كل شيء التحديد اللغوي للمصطلح.

التعريف اللغوي: بالرجوع إلى لسان العرب لابن منظور؛ فإننا نجد أن لفظ الهوية مشتق من لفظ هوى، يهوى، هوة، و مفرد الهوية تصغير لهوة، و هي الفوهة العميقة، أو البئر البعيدة الهوة⁽³⁾. وبالعودة إلى قواميس اللغة العربية؛ فقد ربط معنى الهوية بكلمة "الجوهر" الحقيقة المطلقة - أي حقيقة الأشخاص- التي تشمل صفاتهم الجوهرية.⁽⁴⁾ أما بالرجوع إلى قاموس "لاروس" الفرنسي فنجد المصطلح المطابق للهوية هو: "identité" و يعني التماثل؛ أي ربط الهوية بصفة التماثل، للدلالة على صفات ومميزات تحدد شخص ما عن سواه.⁽⁵⁾

و مقارنة بحجم الاهتمام الذي عرفه المصطلح من قبل علماء الاجتماع و النفس والانثروبولوجيا والتاريخ و غيرهم، يعتبر التحديد اللغوي، مفتاحا لدراسة المطلق من جوانب أخرى، وربما يعود ذلك إلى التطور العلمي و الحضاري، و نمو البناء الاجتماعي للتجمعات البشرية، فهل يقتصر مفهوم الهوية على معنى الذات للأنات والتماثل أم هناك معاني أخرى.

2 - المفهوم السوسولوجي للهوية :

¹- بيتر وكوزن: البحث في الهوية و تشتتها في حياة إريك إريكسون، ترجمة سامر جميل، ط1، دار الكتاب الجامعي، الإمارات العربية المتحدة، 2010، ص 92.

²- سالم لبيض: المرجع السابق، ص 32.

³- ابن منظور: لسان العرب، المجلد 6، دار المعارف، القاهرة، ص 35، 29.

⁴- أحمد سنور: أزمة الهوية في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، أطروحة الدكتوراه، معهد الآداب العربي، جامعة الجزائر، 2001، ص 08.

⁵- كلمة *identité* في اللغة الفرنسية مستمدة من الأصل اللاتيني للكلمة *identitas* وتعني "نفسه" وهي الأخرى مطابقة للكلمة بالغة الانجليزية *identity* للمزيد أنظر:

Joanna annika rumens : Canadian identities : Aninter disciplinary overview of Canadian research of identity Ramod a : department Canadian heritage 2001 p13

بالرجوع لمعجم المصطلحات الاجتماعية، تنطوي الفكرة على معان عدة كالإظهار و الإبراز والتمييز⁽¹⁾، و تشير تنقيحات (رودولف جوكل) و (لودويج شوتر) إلى علاقة الهوية بجدلية، الذات والآخر والترابط المزدوج⁽²⁾ إشارة صريحة إلى علاقة الفرد بالآخرين، في حيز مكاني معنوي اسمه المجتمع، و هذا ما يؤكدّه جون بياجيه، عندما يركز على التنشئة الاجتماعية؛ ذات الطابع المعرفي والعاطفي والتعبيري، والتي يمكن للفرد من خلال اللغة امتلاك قواعد، و قوانين تمكنه من التواصل مع الآخرين، والتعبير عن انتمائه.

وهنا يرتبط مفهوم الهوية بالمجتمع، و يصبح مصطلح الهوية يحمل دلالات أكبر من الاهتمام بالعرق أو النوع (جانب اثني)، أو الاهتمام بنشأة الفرد و الدراسات النمائية حوله (علم الفيلوجينيا) و حتى تاريخ الخبرة المعاشة، حسب الميكروجينا، حيث تجمع الهوية بين علاقة مجموعة متجانسة إثنية و دينيا و قومياً، و الوعي بالمصير المشترك، مع الحيز المادي و الروحي في علاقة تكاملية لا تمكن من البقاء فقط، و إنما تدفع للعمل والمحافظة على الموروث والاستمرارية⁽³⁾. فهي بذلك جملة العناصر المادية و الاجتماعية والذاتية التي تسمح بتعريف خاص للفاعل الاجتماعي⁽⁴⁾، وهذا ما يميز الهوية بكونها مظهر سوسيولوجي يتحكم في مدى فاعلية المجموعة و قدرتها على تحقيق الرقي الحضاري. التي يجد فيها الفرد نفسه في حالة اندماج في الوسط الذي ينتمي إليه.

في البيان نفسه يذهب عالم الاجتماع الألماني " إريك اريكسون " للتأكيد على البعد السوسيولوجي للهوية، من خلال ربطها بالتفاعل بين الميكانيزمات البيولوجية والعوامل الاجتماعية، الأمر الذي يجعل الإحساس بالهوية نابع من الميل اللاشعوري للفرد، للجماعة، و البحث عن التكامل و الوحدة و الانتماء⁽⁵⁾.

إن الشعور بالانتماء إلى الجماعة الناتج عن وعي الأفراد يعبر عن العاطفة النابعة من اندماج الفرد في محيطه الاجتماعي، و مشاركته في الجماعة و المؤسسات الاجتماعية التي

¹-معجم المصطلحات الاجتماعية، ص 100.

- نفسه، ص 101.

³- سالم لبيض: المرجع السابق، ص 33، 32.

⁴- تريكي الحمد: الثقافة العربية في عصر العولمة، دار الساق، ط 1، بيروت، لبنان، 1999، ص 20.

⁵- Erik Herikson : *Autobiographic notes of identity crisis*. Vol 99.h04 U.S.A the Mittpresse.1970.p.p

تبرز من خلال ممارسة كل واحد منا لدوره المنوط به اجتماعياً⁽¹⁾ بالرغم من ميولات الفرد وانجذابه إلى مميزاته و خصوصياته الفردية، التي تختلف مع أفراد المجتمع الواحد، إذ أن الهوية لا تكتسب معنى إلا في ضوء مواجهتها مع الآخر، فرداً أو جماعةً، بموجب تأثرها بالقيم الموجودة في المجتمع و نظمه.⁽²⁾

فالهوية الاجتماعية هي اعتراف فردي بقيم المجتمع، و شعور يضمن استمرارية المجتمع في حدود الزمان و المكان.⁽³⁾ على الرغم من محاولة البعض طرح مقارنة الهوية الفردية و الهوية الجماعية، من خلال تعريف هوية الفرد؛ على أنها مجموعة العلامات أو السمات النفسية و الجسدية، الخاصة بشخص بعينه عن غيره من أبناء جنسه⁽⁴⁾، و في نمط تفكيره و عقيدته و إيديولوجيته في الحياة و التي يشترك فيها مع عدد معتبر من أبناء مجتمعه، و يحاول جاهدا اثباتها داخل مجتمعه.

3- أسس ومكونات الهوية السوسولوجية:

يستدعي الحديث عن الهوية الاجتماعية و مكوناتها عدة عناصر، تشكل أساساً تقوم عليها الهوية و هي: اللغة، الدين، العادات والتقاليد، المصير و التاريخ المشترك، الرقعة الجغرافية.⁽⁵⁾ أما فيما يخص مكونات الهوية السوسولوجية، فإنها تتكون من عدة مكونات و هي ذات مفهوم واسع لكنه يندرج عبر ثلاث مستويات:

- 1) هوية بيولوجية: و ترتبط بالعرق، و احتفاظ الجماعة العرقية أو الإثنية بما يميزها عن غيرها عبر مختلف مراحل التطور الحضاري.
- 2) الهوية الفردية: تشكل هوية الفرد أو إحساسه بهويته الإثنية ينمو بشكل تصاعدي، و إن اتسمت بالفردية في بدايتها، إلا أنها تتبلور مع المراهقة التي يزداد فيها الإحساس بالانتماء إلى الجماعة، و ينمو لديه الشعور بالمصير المشترك.⁽⁶⁾

¹ - محمد العربي ولد خليفة: المسألة الثقافية وقضايا اللسان و الهوية، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، الجزائر، 2013، ص، 108.105.

² - Tajfel.(h) :la coté goration social. In Moscovici. 1973. p292.

³ - محمد عابد الجابري: نحن و التراث، المركز الثقافي العربي، دار الطليعة، 1980، ط1، ص26.

⁴ - شتيح بن يوسف: ثلاثية الدين، اللغة و الثقافة ودورها في إرساء الهوية الوطنية - في - مجلة العلوم الإنسانية والإجتماعية، جامعة محمد خيضر، ص 57.

⁵ - خير الدين الصوابي: الهوية في التفكير العربي الحديث، شهادة الكفاءة في البحث، إشراف: سعد غراب، تونس، كلية الآداب، قسم اللغة، 1993.1992، ص2، على الانترنت pdf.

3) هوية ثقافية: إذا كانت الثقافة عند "تايلور" هي ذلك الكل المركب، فإنها حتماً إحدى أهم مكونات الهوية السوسيولوجية، أو الفلسفية أو أي هوية كانت، فهي عامل خصوصية كل هوية، والوعاء الذي يستوعب كل أفكارها وتوجهاتها، وهنا لا بد من التركيز على عامل اللغة التي لا تشكل واقعا ثقافيا، وإنما مشروع ثقافي يحتوي و لا يُحتوي، على أساس أنها- تؤلف شعوراً بـ نحن.

وفي هذه الحالة تصبح العلاقة بين الفرد والمجتمع، علاقة تآثر أكثر من علاقة تأثير داخل البناء الاجتماعي، فهي بذلك تعايش اجتماعي، و ما دون ذلك فهو محاولة لضرب وحدة الهوية للمجتمع و الناتجة عن سوء الاندماج و التكيف، الذي يؤدي إلى ظهور ما يسمى بالاغتراب نتيجة التناقضات داخل الجماعة

4- الهوية الجزائرية: المرجعيات والأبعاد:

قبل الخوض في مرجعيات و أبعاد الهوية الوطنية الجزائرية، لا بد من الإشارة إلى أمر مهم يخص الدراسات التي تناولت الموضوع، و التي اتسمت في أغلب الأحيان بالتشويه والتحريف، و قد نتج عن ذلك شعور بالاستياء لدى الجزائريين، على طول وامتداد البعد الزمني و المكاني للجزائر.

تتكون الجزائر من تركيبة سوسيولوجية، تمثل انعكاس البعد الحضاري والتاريخي، على البناء و السلوك الاجتماعي للأفراد⁽¹⁾، حيث أدى تنوع تركيبة المجتمع الجزائري إلى خلق تفاعل اجتماعي يمثل أحد أهم المواضيع التي تحتاج للدراسة والتمحيص. و التي لا يمكن لأي دارس فيها إغفال أمر المؤثر السوسيو تاريخي كعامل مهم في تكوين الهوية الوطنية.

4-1- البعد السوسيو تاريخي كمؤثر في بناء الهوية الوطنية:

¹ - يتمثل هذا البعد في الجانب الأنثروبولوجي الذي يعنى بدراسة الإنسان و سلوكه و بناءه الاجتماعي.

تنسب الهوية الوطنية إلى الوطن، وهي تمثل مجموعة الصفات، و السمات الثقافية العامة؛ التي تمثل الحد الأدنى المشترك بين جميع الأفراد، و هي التي تجعلهم يتميزون بفضلها عن بقية الأوطان⁽¹⁾ و ان شكلت بعض الأوطان أمة واحدة.⁽²⁾

يتفق المؤرخون أن البربر هم الأوائل الذين استوطنوا منطقة شمال أفريقيا⁽³⁾، وجميعنا يعلم أن هذه البلاد كانت دائماً عرضة لغزو بلدان الضفة الشمالية للمتوسط بداية بالرومان، و نهاية بالفرنسيين مروراً بالوندال و البيزنطيين والاسبان، طمعاً في ثرواتها، و محاولة مسح الهوية الشخصية الأمازيغية المتمثلة في اللغة، والقيم والثقافة.⁽⁴⁾

وهنا يمكن أن نشير إلى أن هذا الغزو، قد أثر على خارطة الجزائر وتركيبها الاجتماعية، بالرغم من الجهود التي بذلها البربر، في التحرر والمقاومة، و التي تبين بأن البربر أمة واحدة كباقي الأمم التي، أثبتت وجودها وحافظت على بقائها واستمراريتها⁽⁵⁾ وهذا ما أكدته ابن باديس في قوله: "ما من منكر أن الأمة الجزائرية كانت أمة أمازيغية - بربرية- من قديم عهدها، و أن ما من أمة من الأمم التي اتصلنا بها استطاعت أن تقلبها عن كيانها".

تعود أولى بعثات الفتح الإسلامي إلى عهد عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، الذي سمح لوالي مصر عبد الله بن أبي سرح بالخروج و الزحف على ليبيا⁽⁶⁾، و في سنة 50 هجري أسس عقبة بن نافع القيروان؛ التي أصبحت قاعدة خلفية للفتح، وفي نفس السنة واصل أبو المهاجر دينار الفتح باتجاه الجهات الغربية (الجزائر حالياً) مروراً ببسكرة وصولاً لتلمسان، بالرغم من مقاومة قبيلة كسيلة البربرية، الذي هزم و أُسر. وسرعان ما أعلن إسلامه لكنه لم يبق على ذلك، و تمرد على عقبة بن نافع و وال الروم،

- أحمد بن النعمان: المرجع السابق، ص 231

²- و معنى ذلك أن الهوية الوطنية، تختلف عن الهوية القومية، فالأولى لها علاقة بالدولة و الثانية لها علاقة بالأمة، و تتحد هوية الوطن بـ الأرض، الشعب، السلطة، و الرقعة الجغرافية، للمزيد أنظر: محمد صالح الهرماسي: مقارنة في إشكالية الهوية، المغرب العربي المعاصر، دار الفكر، ط1، بيروت، 2001، ص 09.

- راجع لونسبي: دعاة البربرية في مواجهة السلطة، الجزائر، دار المعرفة، 2002، ص 09

- راجع لونسبي: المرجع السابق، ص 10.

⁵- Jean Marie Lanty: **comprendre l'Algérie de Massinissa a nos jour**, les édition de l'officine, 2009, p140

⁶- صالح فركوس: المختصر في تاريخ الجزائر، دار النشر للعلوم، الجزائر، ص 03

حيث استشهد عقبة بن نافع. وحاولت الكاهنة "دحية بنت ثابت بن تيقان" رد المسلمين لكنها فشلت، و تخلى عنها قومها لما وجدوا في المسلمين من تسامح، وتعايش منقطعي النظر⁽¹⁾ وأبدى الأمازيغ ترحيباً كبيراً بالمسلمين، وبدأوا في اعتناق دين الإسلام، لعدة أسباب أهمها: معاني الإسلام وأخلاق فاتحيه وانصهارهم، والقضاء على الاحتلال البيزنطي.⁽²⁾

و صاحب هذا الاعتناق الإقبال على العربية والجهاد في سبيل الله، ولهذا ساهم البربر بشكل كبير في فتح الأندلس، وأصبح طارق بن زياد الأمازيغي، قائداً للجيش الفاتح، مما يؤكد تمازج الشعبين و انصهارهم في وعاء واحد؛ اسمه المجتمع المسلم بعيداً عن التعصب، مثل بلاد الفرس، مما يؤكد على وجود بوادر تشكل الهوية المحلية، نتيجة تمازج البعدين الإسلامي العربي والإسلامي الأمازيغي.

وعلى الرغم من كل ما حققه العرب و البربر من فتوحات، إلا أن صراع اللغة الذي خيم على المغرب الأوسط⁽³⁾ انعكس بالسلب على الوحدة الوطنية في هذه الرقعة الجغرافية، التي كانت تتقاسمها دويلات صغيرة و متزاحمة. و عاجزة امام تحرشات اسبانيا المسيحية، التي سيطرت على المرسى الكبير وهران، و حاولت احتلال بجاية وجيجل و الجزائر، لولا وصول العثمانيين.

ساهم وصول العثمانيين إلى جيجل سنة 1514م، و الجزائر سنة 1516م، إلى وقف هجومات اسبانيا و إعادة الاستقرار الأمني تدريجياً إلى المنطقة، وادى لتنوع البنية الاجتماعية للجزائر التي أصبحت على النحو التالي:

– أتراك: ما بين عشرة آلاف (10000) و ثلاثة آلاف (3000)

– كراغلة: حوالي خمسين ألف (50000) سنة 1808م

- عشراي سليمان: الشخصية الجزائرية الأرضية التاريخية والمحددات الحضارية، ديوان المطبوعات

الجامعية الجزائر 2007، ص 72¹

- أحمد بن نعمان: والأطروحة البربرية، شركة دار الأمل، ص 27.28²

³- مصطلح أطلق على الجزائر في القرون الوسطى و بداية العصور الحديثة بعد سقوط دولة الموحدين 1269

و انقسامها لثلاث كيانات سياسية و هي: المغرب الأدنى (الحفصيين تونس الحالية) المغرب الأقصى (المرينيين

المغرب حالياً) المغرب الأوسط (الزيانيين الجزائر حالياً) للمزيد أنظر: محمد الأمين عطلي: نشاط البحرية

الجزائرية خلال القرن السابع عشر، رسالة الماجستير، اشراف عمار بن خروف، جامعة غرداية، 2012، ص

25.

- دخلاء: رعايا أوروبيون، و أسرى يمثلون نسبة 6% من السكان⁽¹⁾.
- بربر: يتواجدون في المناطق الجبلية.
- العرب: أندلسيين و عرب أصليين يسكنون الحضر و البدو و السهوب⁽²⁾
و هنا نشير إلى أن الجزائر بالرغم من وحدتها الترابية، إلا أن المناطق التي تكونها كان لكل منها تاريخها المتميز، و كان تداخل و تشعب لغاتها و ثقافتها يشكل قاسمها المشترك الوحيد، فالانتماء للإسلام و تشبع النخب باللغة و الثقافة العربية، كان عاملاً مساعداً على التجانس و التلاحم، لكن انتشار اللهجات العامية، و سيطرة نمط الحياة القبلية، زاد في بعد الأهالي عن السلطة المركزية⁽³⁾.
- إن أساليب الحكم العثماني القائمة على الضرائب و التمييز العنصري والمفاضلة بين القبائل والارتكاز على رجال لا يتمتعون بأي تأصيل و لا جذور لهم في البلاد للحكم ؛ قضت على الشعور بالانتماء إلى الوطن الواحد و ارتبط المجتمع المدني في الجزائر بالدين، خاصة الزوايا و الطرق الصوفية، التي شكلت قاعدة للدفاع عن الحرية الوطنية.
- بالرغم من أن الوعي القومي و الشعور بالانتماء إلى وطن واحد كانا موجودين، إلا أن الواقع المعاش المفروض على الشعب يقول عكس ذلك: ففي 1830، لم يكن سكان الجزائر يعتبرون أنفسهم جزائريين، لأن الشعور بالانتماء كما سبق و أشرنا كان يرتبط بالعائلة، أو الرابطة اللغوية (عرب-بربر-أتراك)، ذلك أن الوعي القومي و اللغة والدين، لم تبلور كمكونات للهوية الوطنية، إلا داخل حلبة الصراع ضد فرنسا⁽⁴⁾.
- من هنا يكون المستعمر الفرنسي، قد لعب دورا كبيرا في رسم ملامح الهوية الجزائرية المكانية، وكان سببا في ظهورها، و يمكن أن نميز بين ميزتين أساسيتين للهوية الوطنية

1- اسماعيل فيرة و آخرون: مستقبل الديمقراطية في الجزائر، مركز الدراسات الوحدة العربي،

بيروت، 2002، ص 54

2- غالي بودبوز: المرجع سابق، ص 154.

3- محمد حربي: الثورة الجزائرية، سنوات المخاض: ترجمة: نجيب عياد و صالح المثلوثي، موفم للنشر، 1994،

طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ص، 100

- محمد حربي: المرجع السابق، ص 101.

أثناء فترة الاستعمار الفرنسي أولها محاولة تشويهها، و محوها للقضاء على المقاومة⁽¹⁾ و هنا نستدل بخطاب الجنرال بيجو أمام مجلس البرلمان الفرنسي: "...يجب قلب الجنسية الجزائرية وتحطيم قوة الأمير عبد القادر وإلا لن تفعلوا شيئا... في الجزائر..... إنكم أمام شعب عزيز متحمس للقتال ومعد بشكل عجيب للحرب، مستعدا دائما للحرب، غيور على حريته كما يؤكد تاريخه على ذلك... لهيمنة عليه وتحويله، واغتصابه لصالح الشعب الجديد الذين تريدون إدماجه، يجب أن تكونوا دائما أقوىاء ! إما بجيش دائم، وإما بطبيعة وتركيبه الشعب المتسلط"²

و الثانية استعملت من الجانب الجزائري، كوسيلة شحن لنفسية المجتمع ضد المستعمر الفرنسي⁽³⁾ و قد سخرت الإدارة الفرنسية شتى الوسائل، من أجل صهر الهوية الوطنية المحلية بمقوماتها (الوطنية و اللغوية و الدينية) في قالب الإدماج فحارب اللغة و التعليم، و شدد الخناق على الدين و تدريس القرآن، و عزز من مكانة التاريخ الفرنسي و مبادئ ثورته، و حاول انتهاج أسلوب بريطانيا في الهند - أي أسلوب فرق تسد- من خلال إذكاء فرنسا للزعة البربرية، التي وُجّهت أساسا ضد الانتماء العربي، الذي تعز به الأمة الجزائرية برمتها⁽⁴⁾ و بفضل جهود الزوايا والكتاتيب، و رجال النهضة الجزائرية وجمعية العلماء المسلمين، استطاعت الجزائر أن تحافظ على أهم رموز و ثوابت هويتها وهي الدين-اللغة- والثقافة و الوحدة الجغرافية.

4-2- ثوابت و أبعاد الهوية الوطنية الجزائرية:

أما فيما يخص بعض الثوابت و الأبعاد الوطنية للهوية الجزائرية، فقد لخها الشيخ عبد الحميد بن باديس في شعار "الإسلام ديننا و العربية لغتنا و الجزائريون وطننا" الذي يلخص جهود جمعية العلماء المسلمين منذ 1931، في الوقوف أمام المخطط الاستعماري الفرنسي الذي يهدف إلى استئصال كل المقومات الثقافية والحضارية، والدينية للشعب الجزائري، و في مقدمتها الدين و اللغة و تغييب تام لوطن اسمه

¹ - مصطفى الاشراف: الجزائر مجتمع و أمة، ترجمة: حنفي بن عيسى، دار القصة للنشر، الجزائر، 2007، ص146.

² Saadia Lakhedar: L'aliénation coloniale et la suite once de la famille algérienne. Edition la cité. 1960,p48.

- مصطفى الاشراف: المرجع السابق، ص146.³

- شتيح بن يوسف: المرجع السابق، ص51.⁴

الجزائر⁽¹⁾ و هذا لا يعني إقصاء الأمازيغية و إنما محاولة للشمول وإذكاء البعد
الوحدوي لا غير.⁽²⁾

4-2-1- الدين والبعد الإسلامي: يشكل الدين المكون الأساسي لشخصية و هوية الأمم،
فهو ظاهرة تاريخية صاحبت الإنسان منذ ظهوره على وجه الأرض، وباعتبار الدين
الإسلامي آخر الديانات السماوية و الناسخ لها، و على أساس انه رسالة الله إلى العالم
عبر العرب، فقد اتخذت الأمة الإسلامية منه شعار دساتيرها و موثيقها، والجزائر
إحدى هاته الأمم التي جعلته أهم مقوم للشخصية الوطنية، كما حض عليه دستور
الدولة وصانته قوانينها.⁽³⁾

أما المواثيق الوطنية التي شددت على ثقل الدين الإسلامي كمركب للهوية فهي كثيرة
منها: نص الميثاق الوطني سنة 1976: الذي نص على أن الشعب الجزائري مسلم،
والإسلام دين الدولة، وهو أحد أهم المقومات الأساسية لشخصيتنا التاريخية⁽⁴⁾ و هو
هوية للشعب و الدولة ووسيلة لتوحيد جميع الأطياف و الفئات كما جاء في ميثاق 1986:
" ... صهر الإسلام المجتمع الجزائري فجعل منه قوة بالمعتقد الواحد، و باللغة العربية
التي مكنت الجزائر من استئناف دورها في العامل الحضاري".⁽⁵⁾ و جعلت من الدين
وسيلة لتحقيق الوفاق والإجماع على أساس أنه وسيلة و عامل من عوامل تحقيق
الاستقرار، وهذا ما جسده مجمل الطرق القانونية المسيرة للشؤون الدينية⁽⁶⁾

4-2-2- اللغة العربية و الأمازيغية والبعد العرقي و اللغوي:

¹- نصيرة زميرلين: التعليم الإسلامي في الجزائر 1830-1962، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر ص141.
وانظر علي بن محمد : مرجعيات الهوية الجزائرية في فكر الإمام عبد الحميد ابن باديس، مقال على الانترنت،
ص 01.

²- أصول ابن باديس الأمازيغية: تعود أصوله الأمازيغية الى الزيريين الذين حكموا ما بين 386هـ و406، وهو
أمازيغي أصيل

³- الجريدة الرسمية للدولة الجزائرية، الباب الأول، المبادئ العامة التي تحكم المجتمع الجزائري، الفصل (1)،
الأربعاء: 23 رجب عام 1409هـ، ص 236.

⁴-سمية اوشن: المرجع السابق: ص، 142

⁵- روف مالبير: العقل الإسلامي أمام تراث عصر الأنوار في الغرب: الجهود الفلسفية عند محمد أركون: ترجمة
جمال حشيد، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، 2001، ص، 29

⁶- سعيد شريف صحراوي: مسألة المشروعية وتأثيرها على الاستقرار السياسي في الجزائر (1962-2009)
مذكرة ماجيستر، الجزائر، جامعة بن يوسف بن خدة، 2008-2009، ص، 78

تعتبر اللغة من بين أهم ثوابت و أبعاد الهوية الوطنية، ولا يختلف اثنان حول الجذور التي ينتمي إليها الجزائريون، بانتمائهم إلى العرق البربري الامازيغي، و العربي الإسلامي، للذان امتزجا بفضل الدين الإسلامي منذ 14 قرنا⁽¹⁾ مشكلين بذلك مجتمعا واحدا و مترابطا، وإن اختلفت بعض العادات والتقاليد، التي قد تؤثر إيجابا من حيث الثراء الثقافي لا غير. وعلى الرغم من محاولات الاستعمار الفرنسي، كما سبق و أشرنا في البعد السوسيوثقافي للهوية الجزائرية، معاملة الجزائريين بأسلوب الثنائية؛ أي عرب و أمازيغ؛ لطمس هوية الجزائريين، وإثارة النزعة العرقية التي أذاها مع مرور الزمن؛ الانتماء إلى الإسلام و الولاء إلى الوطن الواحد.

أما اللغة العربية باعتبارها لغة الدين الإسلامي، و اللغة ذات البيان و البلاغة الكبيرة، كانت الأقرب لتمثل الجزائريين، في وقت توجب على الكل الالتفاف حول لغة واحدة في وجه لغة المستعمر، وفي أهمية اللغة يقول ابن العلامة ابن باديس: "...فليس الذي يكون الأمة و يربط أجزائها، ويوحد شعورها، ويوجهها إلى غايتها، هو هبوطها من سلالة واحدة، وإنما الذي يفعل ذلك هو تكلمها بلسان واحد".

وجاء اهتمام الدولة باللغة العربية وجعلها اللغة الرسمية، لأنها شكلت حلقة الصراع الحضاري مع اللغة الفرنسية أيام الاحتلال، وكانت لغة الجزائر في وجه جهود المستعمر الإدماجية، ومن مظاهر الاهتمام القانوني باللغة العربية؛ كموروث ثقافي وحضاري ومكون للهوية الجزائرية، اتخذها لغة رسمية منذ أول دستور سنة 1963، والتأكيد على ذلك بعد الأحداث التي مَسَتْ منطقة القبائل؛ والتي عرفت بالربيع الامازيغي 1980، كما جاء دستور 1989، للتأكيد على رمز الهوية الجزائرية وثوابتها، وهي الإسلام دين الدولة واللغة العربية هي اللغة الرسمية والوطنية.⁽²⁾

إن الاهتمام باللغة العربية ليس إقصاء للامازيغية ولا محاولة لتغييها ولا إهمالها، إنما هو انعكاس لواقع اجتماعي تاريخي قديم من جهة، ومحاولة الحفاظ على مكتسبات الدولة في ظل الموروث الفرنكوفوني المسلط على رقبة المجتمع الجزائري، وجهود دعاة التفرقة العرقية وأعداء الوحدة الوطنية من جهة أخرى.

¹- E.damas :mouvers et coutumes de l'Algérie, édition 5 ,indlad, paris .

²- عبد النور ناجي: تجربة التعددية الغربية في الجزائر والتحول الديمقراطي: دراسة تطبيقية في الجزائر، دار الكتاب الحديث، القاهرة ص 89.

ولعل اهتمام الدولة بالامازيغية والاعتراف بها كلغة وطنية في الدستور، وإدراجها ضمن البرامج التعليمية في المنظومة التربوية بداية من منطقة القبائل أولا، ثم تعميمها على المستوى الوطني ثانيا، دليل على البعد الثقافي الأصيل للإسلام من جهة، ورد على دعاة الفتنة من جهة أخرى. وهنا يجب عدم الخلط بين كونها لغة وطنية وليس رسمية، لأنه لا توجد دولة ذات علمين ولا نشيدين ولا لغتين متداولتين وطنيا، وفرنسا أفضل نموذج على ذلك، فبالرغم من تعدد اللغات بها وكثرة اللهجات إلا أنه لا سيادة تملو فوق سيادة اللغة الفرنسية في الإدارة والأجهزة الإعلامية الرسمية.⁽¹⁾

وعلى الرغم من ذلك فقد حمل دستور 2002 في المادة الثالثة اعترافا بالامازيغية كلغة وطنية، تعمل الدولة على ترقيةها وتطويرها، كأحد الثوابت الوطنية. و صاحب ترسيم اللغة الامازيغية تداعيات سياسية، و ولاءات خارجية، وفرض تحديات جديدة للهوية الوطنية، في ظل تحديات أخرى كالعولمة، و التمهذب الإيديولوجي، في ظل الانتماء للأحزاب السياسية.

4-2-2- الثقافة والبعد الوحدوي: الهوية الوطنية هي بنت الثقافة وحدها، و هي جميع السمات المادية و الفكرية و الروحية و العاطفية التي تميز مجتمعا بعينه، أو فئة اجتماعية بعينها. وهي تشمل الفنون و الآداب و طرائق الحياة، كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان، و نظم القيد و المعتقدات و التقاليد، و ان الثقافة هي التي تمنح للإنسان قدرته على التفكير في ذاته، وهي التي تجعلنا نتميز بالإنسانية.⁽²⁾

و عند إسقاط هذا الكلام على الجزائر، نجد أنها تزخر بتنوع ثقافي، ينعكس على البناء الاجتماعي، فنجد الوعاء العام للثقافة واحد وهو الدين. أما اللغة كوسيلة للتواصل و التبادل الثقافي، فتختلف بالاختلاف الإثني بين العرب و الامازيغ، فتنتشر إلى جانب العربية لغة محلية أمازيغية (ثامازيغت) وتتفرع إلى عدة لهجات: لهجة تاشويت، و ثاقباليث و ثاتارقيث، و ثاسنويت، لكن يحتاج كل السكان ذوي الانتسابات العرقية المختلفة، إلى العربية كلغة حضارية تجمعهم.⁽³⁾

5- المجتمع بين الولاء للهوية، و التأثير الإيديولوجي:

- احمد بن النعمان : الهوية الوطنية، الحقائق والغلطات : المرجع السابق، ص، 154.

² - احمد بن النعمان : المرجع السابق، ص 14.

³ - احمد بن النعمان : فرنسا والأطروحة البربرية، 26، 27.

5-1- الهوية وتحديات الأزمة البربرية (الامازيغية) :

تعود جذور الأزمة البربرية إلى أيام الحقبة الاستعمارية، التي اذكت روح التفرقة لأغراض مصلحيه خاصة. فالاختلاف العرقي بين العرب والبربر؛ وتر عذفت عليه فرنسا من أجل تحقيق سياسة فرق تسد، وهذا ما نلمسه في اهتمامات وكتابات كبار المسؤولين والضباط الفرنسيين، حيث كتب أحد القادة الفرنسيين عام 1848 ما يلي : " إن بلاد القبائل التي ظلت حتى الآن تقع خارج دائرة الاتصال المباشر بنا، والتي بقيت في حالة صراع ضد جميع أشكال السيطرة السابقة يجب أن تصبح من هنا ولبضع سنوات المساعد الأكثر ذكاء لمشاريعنا والشريك الأنفع لعالمنا "(1) إشارة منه إلى ضرورة استعمال ورقة الاختلاف العرقي لتحقيق الأهداف. ولهدم كل ما يمكنه تعميق الإسلام في المنطقة القبائلية، وبالمقابل تمتين كل ما يضمن التمايز بين العرب والبربر.(2)

وهذا ماجاء علانية على لسان الجنرال لاكوست : "إن الجزائر لن تكون دولة إسلامية بسبب وجود المليون أوربي مسيحي، كما لن تكون عربية بسبب وجود البربر فيها"(3) وقد سعت الإدارة الفرنسية بعد أن توجست خيفة من ثورات لالة فاطمة النسومر و بوبغلة والشيخ الحداد، إلى إفراغ المنطقة من نخبة العلمية الإسلامية، واستبدالهم بنخب متكونة تكوينا فرنسيا وفق المبادئ الفرنسية (4) وما فتئت تشكل الأفكار البربرية، حتى طغى على الساحة السياسية مع منتصف القرن 20 وتحديدا عشية النضال السياسي واصطلح عليها "الأزمة البربرية"

5-2- مطالب الحركة البربرية السياسية واللغوية بعد 1962 :

عرفت منطقة القبائل أحداث "الربيع الامازيغي" 21 أفريل 1980 وفي أوت 1980 نظمت الحركة أول ملتقياتها وجاء مطلبها كما يلي :

- الاعتراف بالهوية الأمازيغية.
- الاعتراف باللغة الأمازيغية كلغة وطنية.

¹-محمد الميلي: الجزائر والمسألة الثقافية: العدد 42، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، أوت 1982، ص،

- محمد أميلي: الجزائر والمسألة الثقافية، المرجع سابق، ص، 59.

- احمد بن النعمان: الردود العلمية على الأطروحات العرقية وتعدد الهوية في الجزائر، دار الأمل، الجزائر،

2005، ص، 28.

- مصطفى الشرف: المرجع سابق، ص، 62.

● إدخال اللغة الأمازيغية إلى المدرسة و التلفزيون و المؤسسات.(1)

وبعد أحداث عديدة جاء دستور 1996 ، الذي اعترف بالأمازيغية كمقوم من مقومات الهوية إلى جانب العربية والإسلام (2) وفي 2001 ، تطورت المطالب لتشمل المطالب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وفي التعديل الدستوري 2002 ، أضاف المادة 03 التي تنص على أن الأمازيغية لغة وطنية تعمل الدولة على ترقيةها. وفي يوم الثلاثاء 05 جانفي 2016 كشفت الحكومة الجزائرية عن نسخة المشروع الجديد لدستور البلاد الذي يعتمد الأمازيغية كلغة ثانية رسمية (3).

3-5- الهوية الوطنية وتحديات الأفكار السياسية والحزبية والإيديولوجية :

تعتبر ظاهرة التعددية الحزبية جديدة لدى البعض؛ بعد التعديل الدستوري الذي تلى أحداث 05 أكتوبر 1988 ، لكن الظاهرة تعود إلى ما قبل الاستقلال حيث تميز الطابع النضالي للحركة الوطنية بالتعددية الحزبية، وتنوع أفكارها الإيديولوجية، مع بروز التيار الاشتراكي الذي وجد ضالته بعد الاستقلال، على الرغم من اختلافه مع ما جاء في مبادئ نوفمبر 1954. ومن أهم الأبعاد السياسية في التمثيلات السياسية نجد :

1- التيار الإسلامي العربي : يشكل الإسلام والعروبة أهم مقوماته، ويسعى من خلالها إلى بعث الأفكار السياسية الإسلامية ومشروع الدولة الإسلامية، ويعتبر هذا التيار من العوامل التي تساهم في الحفاظ على الموروث الهوياتي فيما يتعلق بالإسلام والعروبة، بغض النظر عن أهدافه السياسية. وهذا نلمسه من برامجها الحزبية التي تولي أهمية للانتماء إلى الأمة والحضارة الإسلامية العربية، واتخاذها العربية كوعاء للتراث والهوية. كما يعتبر الأمازيغية عمقا للتاريخ الوطني(4)

2- التيار العلماني الفرانكفوني : ويسعى هذا التوجه لعلمنة الدولة، وعدم الاعتراف بالإسلام والعروبة كمكون للهوية الوطنية، ويجعل من الحداثة والعنصرية والديمقراطية أهم أسسه الحزبية، ويسعى هذا الحزب للحفاظ على اللغة الفرنسية، ونشر ثقافتها، ويحارب التيار الإسلامي واصفا إياه بالإقصائي، وحث الدولة على إلغاء

- راجع لونيبي: المرجع السابق، ص، 181.

- نفسه: ص 125.

: تعديل دستوري في الجزائر يعتمد على الأمازيغية لغة رسمية، منقول عن جريدة الخبر، اليوم

3- <http://arabic.rt.com/2016/01/17>

- موقع حركة مجتمع السلم على لنت، (حمس.نت)4

قانون الأسرة المستمد من الشريعة الإسلامية، ودعاها إلى إصلاح المنظومة التربوية وفق المبادئ اللاتكنية، كما يعتبر هذا التيار الثقافة الفرنسية وسيلة لتحقيق الحداثة و العصرية

3- التيار الثوري: ويتخذ هذا الحزب من مبادئ وأسس ثورة التحرير برنامجا له، وقد وجد هذا الحزب مكانا له في الأوساط الشعبية مركزا على الحماسة الوطنية الثورية، لاستعطاف المجتمع الجزائري، كما جعل من الثوابت الوطنية في مقدمتها الإسلام والعروبة أهم أولوياته، واعتبارها أسس الانتماء الحضاري، وبالرغم من كثرة المعارضين على الساحة السياسية، إلا أن هذا الحزب واصل ديمومته، ولا ننكر أن هذا التيار لا يزال يركز على ضرورة توثيق الصلة برموز الوطن، وتعزيز مكانة التاريخ كعامل لبناء شخصية وهوية الجزائر.

3- التيار الامازيغي: مثلت جبهة القوى الاشتراكية بزعامة المجاهد "الدا حسين" أو حسين آيت احمد رحمه الله التيار الامازيغي، ودافعت عن مكونات الشخصية البربرية، في مقدمتها اللغة الأمازيغية، وطالبت بترسيمها واعتبارها بعد ثقافي مغربي وليس جزائري فقط. وبدون مبالغة اعتبر هذا الحزب الممثل الشرعي لمنطقة القبائل.⁽¹⁾

4-5- الهوية وتحديات العولمة :

العولمة والشمولية أو العالمية: مصطلح فرض نفسه كواقع بعد الحرب العالمية الثانية؛ نتيجة لمحاولة الولايات المتحدة الأمريكية فرض نموذجها الثقافي، ومحاولة إعطائه طابع العالمية.⁽²⁾

ولعل من أهم التأثيرات السلبية للعولمة على المجتمع نجد :

- 1) على المستوى التاريخي: (إحداث خلل في هوية الشعوب).
- 2) على المستوى الإيديولوجي: هيمنة النموذج الأمريكي ونشر الفكر التغريبي.
- 3) على المستوى الروحي والمادي: تعمق الإحساس بالتبعية في الماديات والروحيات.
- 4) على المستوى الاجتماعي: مشروع غير أخلاقي يفرغ المجتمع من رفعة الأخلاق.
- 5) على المستوى الإعلامي: تعزز من نماذج وطرق العيش وتفرضها دون مقاومة.⁽³⁾

¹- www.ffa-dz.net: يوم السبت 16 جانفي 2016 على الساعة 14:00.

²- زاغو محمد: اثر العولمة على الهوية الثقافية للأفراد والشعوب، كلية العلوم القانونية والإدارية، جامعة

حسيبة بن بوعلي، الشلف، ص، 96.

- نفسه: ص، 98.

خاتمة:

من خلال دراستنا لموضوع الهوية الجزائرية، توصلنا لمجموعة من النتائج والاستنتاجات أهمها:

1- الهوية الاجتماعية شعور جماعي، يربط بين السمات والخصائص الثقافية، والبيولوجية المشتركة للأفراد، ويعزز روح الجماعة والوطنية، والإحساس بالمصير المشترك، ويرتبط مفهوم الهوية بالمجتمع، الذي يتكون من مجموعة الأفراد؛ الذين يشكلون بدورهم مجموعة القيم، والأسس، والمبادئ المشتركة، التي تميز كل مجموعة بشرية عن غيرها.

2- تعتبر الهوية مظهر سوسيولوجي يتحكم في مدى فاعلية المجموعة وقدرتها على تحقيق الرقي الحضاري. التي يجد فيها الفرد نفسه في حالة اندماج في الوسط الذي ينتهي إليه وتعتبر الهوية الاجتماعية اعتراف فردي بقيم المجتمع، وشعور يضمن استمراريته في حدود الزمان والمكان.

3- الهوية السوسيولوجية ذات مفهوم واسع، لكنه يندرج عبر ثلاث مستويات؛ هوية بيولوجية، هوية فردية، وهوية ثقافية. تشكل مكونات البعد الاجتماعي للهوية. وهوية الفرد أو إحساسه بهويته الإثنية، ينمو بشكل تصاعدي، وإن اتسمت بالفردية في بدايتها، إلا أنها تتبلور مع المراهقة، التي يزداد فيها الإحساس بالانتماء إلى الجماعة، وينمو لديه الشعور بالمصير المشترك.

تشكل الهوية الاجتماعية من أسس تقوم عليها وهي: اللغة و الدين، العادات والتقاليد، المصير و التاريخ المشترك، و الرقعة الجغرافية. أما ثوابت الهوية الوطنية الجزائرية ثلاث: الدين الإسلامي، اللغة العربية والامازيغية، والثقافة المحلية بتنوعها وراثتها

4- إن المناطق التي لكل منها تاريخها المتميز و تعرف تداخل و تشعب لغاتها و ثقافتها تشكل الهوية الاجتماعية قاسمها المشترك و الوحيد

5- عرفت الهوية الوطنية الجزائرية تحديات كبيرة أثناء الاستعمار وبعده؛ أهمها الأزمة البربرية وتداعياتها، العولمة و إيديولوجية الفكر السياسي الحداثي، و التأثير الإيديولوجي الحاصل على مستوى البنية الفكرية والاجتماعية والسياسية العالمية.

6- المطالب الامازيغية مشروعة، وتعبر عن ثقافة وأسس مجموعة عرقية لها عمق تاريخي وحضاري، لكنها تصبح خطيرة؛ عندما تتفاعل مع الأفكار السياسية المغرضة، والتي تهدف لزعزعة الاستقرار، وضرب الوحدة الاجتماعية والترايبية للجزائر